

المجلد: 04، العدد: 02 (2020)، ص146-159

الزوايا في الجزائر وتأثيراتها من خلال الكتابات الاستعمارية خلال القرن 19
The Zaouias in Algeria and their influences through foreign writings during the 19 th century

نور الدين إيلال
جامعة لويس علي-البليدة 02 (الجزائر)
illal.nourrdine@gmail.com

ملخص:	معلومات المقال
يتناول هذا المقال الموسوم "الزوايا في الجزائر وتأثيراتها من خلال الكتابات الاستعمارية خلال القرن 19" حيث سأعرض أولا على تعريفها لغة واصطلاحا ثم التطرق إلى مختلف تأثيراتها على الفرد والمجتمع وتأثيراتها الاقتصادية، والسياسية والاجتماعية. هذا، وتهدف هذه الدراسة إلى معرفة مدى ما جاء على لسان هؤلاء من مؤرخين وعسكريين في دراساتهم عن الزوايا التي زاوجت بين التعليم الديني والجهادي. قادنا البحث في الموضوع إلى بعض الحقائق وهي أن تلك الكتابات لم تكن اعتباطية ولا عشوائية بقدر ما كانت هادفة ومتزامنة مع مساعي الجمهورية الفرنسية الثالثة لتكريس الاتجاه السانسييموني وتقوية المنظومة الاقتصادية الرأسمالية الكولونيالية في الجزائر.	تاريخ الارسال: 2020/11/14 تاريخ القبول: 2020/11/28 تاريخ النشر: 2020/12/09 الكلمات المفتاحية: ✓ الزوايا ✓ المشروع الاقتصادي ✓ الرأسمالي الكولونيالي ✓ الاستعمار ✓ المصادر المالية للزوايا
Abstract:	Article info
In this article entitled « Zaouias in Algeria and their influences through foreign writings during the 19 th century », I will first give the definition of the phenomenon « Zaouias » then, I will clarify their socio-political and socio-religious influences. My study aims in to know the historical readings of historians of these religious establishments. Ultimately, the writings and hypotheses posed by them aimed to enrich and extend the colonial capitalist economic project in Algeria.	Received :14/11/2020 Accepted:28/11/2020 Publication:09/12/2020 Key words: ✓ zaouias ✓ influences the colonial capitalist ✓ colonialism ✓ financial resources of the zaouias

. مقدمة:

تعد الزوايا من بين المؤسسات الدينية التي جمعت بين عدة أنشطة وخدمات تعود جذورها إلى ما قبل الفترة العثمانية، بل قبل ذلك اي في حدود القرن الخامس عشر إلا أن الدارس لتاريخ الزوايا في الجزائر من منظور المدرسة التاريخية الوطنية يختلف ولو بالشيء اليسير عن ما أرخت له المدرسة الاستعمارية، وانطلاقا من هذا جاء موضوع المقال الموسوم بـ "الزوايا في الجزائر وتأثيراتها من خلال الكتابات الاستعمارية خلال القرن التاسع عشر" والتي تثير إشكالية البحث في مدى تأثير الزوايا على المجتمع الجزائري من خلال الكتابات الاستعمارية التي أطرقت الموضوع.

وللوصول إلى ذلك، اقتضت منا هذه الدراسة الخوض في المنهج التاريخي التحليلي القائم على سرد المادة التاريخية، بناءها وتحليلها تحليلًا تاريخيًا وكرونولوجيًا للأحداث. هذا، وتهدف الدراسة المتضمنة في هذه الورقات إلى إبراز مدى حقيقة الزوايا ودورها من خلال وجهات النظر الاستعمارية سواء كانت للمؤرخين أو العسكريين انطلاقًا من الكتابات الظرفية والمعاصرة، ولإلمام بذلك، قمت بإعطاء لمحة عن تعاريف الزاوية لغة واصطلاحًا، اتبعتها بجملة التأثيرات ذات التوجهات المتعددة ومظاهرها العسكرية، والاجتماعية، والاقتصادية واختتمت المقال بمجموعة من الاستنتاجات جاءت مركزة وهادفة في شكل نقاط كما سنرى لاحقًا.

لا يختلف اثنان في أن الزوايا ذات منشأ ديني تعود في الأساس إلى القرآن والسنة وتأصيل للمجتمع الإسلامي في ربوع العالم الإسلامي مغاربه ومشاركه، فلم تكن حكر على الجزائر فحسب وإنما انتشرت بشكل كبير لدى جيراننا في بلاد المغرب الكبير والصحراء الكبرى وفي بلاد المشرق، فكان انتشارها هذا عبر قوافل الحجاج والطرق التجارية والفتوحات الإسلامية. لا نخوض في هذه التفاصيل التي تبعدنا عن موضوعنا وإنما نحاول الدخول في الموضوع مباشرة.

تطرقت مجموعة من المصادر الأجنبية إلى الزوايا في الجزائر كل حسب ما يراه في تصويره وانطلاقًا من معاصرته للأوضاع العامة في الجزائر خلال العهد الاستعماري أو ما كتب عن هذه المؤسسات قبل الاحتلال الفرنسي. فالكثير منا يدرك جيدًا بأن الزوايا كانت تمثل المكان والمحل الذي ترتاح فيه النفوس وتطمئن لخالقها لما لها من ارتباط عاطفي بالهوية العربية الإسلامية التي تمتد إلى بطون التاريخ لكن الكثير من المؤرخين والكتاب الفرنسيين كادوا أن يتخصصون فيها لاعتبارات قد تكشف عليها من خلال هذه الورقات.

2. الزاوية لغة واصطلاحاً

لا يختلف تعريف الزاوية لغة عند المؤرخين والمهتمين الذين درسوا تاريخ الزوايا وأسهبوا فيها، لغة مفرداً زاوية مشتقة من فعل "انزوى" و"ينزوي" بمعنى اتخذ ركناً، كما أنها مأخوذة من فعل "زوى" و"أزوى" بمعنى ابتعد وانعزل، وأن فعل زوى الشيء يزوله زياً، أي جمعه وقبضه⁽¹⁾.

والزاوية عند الشيخ محمد باي بالعالم تنسب إلى فعل "زوى" أي جمع لأن فيها تتجمع الصفوف والفقراء وطلبة العلم، كما يجمع فيها المال بطرق مشروعة قصد تمويلها وتسيير نشاطها⁽²⁾.

أما اصطلاحاً فيراد بها مأوى المتصوفين والفقراء، والمسجد الغير جامع ليس فيه منبر كما جاء في المعجم الوسيط وفي القاموس المحيط حيث كانت في شكل رباطات في البداية لتتحول فيما بعد مع مرور الزمن إلى زوايا⁽³⁾.

هذا، ويذكر لويس رين (Louis RINN) بأن عددها نحو 355 زاوية أما كوبولاني (COPPOLANI) فيذكر بأن عددها بلغ 349 لكل منها أتباع ومريدين⁽⁴⁾ أما عن انتشارها فتذكر مصادرها بأن معظم هذه الزوايا كان يتواجد في البيئة الريفية.

ويعرفها الشيخ الونشريسي الذي يذكر بأن الزاوية هي مكان الاجتماع على الذكر وتلاوة القرآن حيث كان فقهاء تلك الفترة يدعون إلى أنواع التعاون على البر والتقوى كما اعتبرها وسيلة لتنشيط المنكاسل عن العبادة والذكر، فكانت الزاوية مركز ديني واجتماعي.

أما المصادر الأجنبية تعرف الزوايا على أنها مكان الاجتماع على الذكر وتلاوة القرآن. وذلك انطلاقاً من نشاطها اليومي، وتذكر أخرى بأنها بمثابة مؤسسات الاحتياط الضرورية ونظراً لنشاطها الديني شبهتها مصادرها بخيوط العنكبوت المنتشرة في كافة العالم الإسلامي ويعرفها آخرون بأنها جامعة دينية وملجأ مجاني وآخرون يذكرون بأنها المؤسسات التي تخضع للمرابطين المقيمين في البلد والذين يعملون على تحقيق أهداف ثلاثة وهي: الصلاة، والعمل الخيري، وأخيراً التربية⁽⁵⁾.

من خلال هذه التعريفات التي جاء بها أصحابها المعاصرين يمكننا القول بأن هؤلاء أدركوا حقيقة هذه المؤسسات الدينية التي تناولت جميع جوانب الحياة عند المجتمع الجزائري والمجتمع الإسلامي المعاصر المترامي الأطراف فهي بذلك المدارس التقليدية التي ظهرت في الجزائر التي انفردت بالتعليم الديني. ولكيلا نبتعد عن الموضوع الجوهر في دراستنا، سندخل مباشرة في صميم الموضوع الذي يتناول تأثيرات هذه الزوايا من خلال الكتابات الأجنبية، فلم تخف هذه المصادر مختلف التأثيرات وفي جوانب مختلفة ومتعددة، السياسية، والدينية، والاقتصادية، والاجتماعية. فكيف عالجتها يا ترى؟

3. التأثيرات الدينية والروحية للزوايا على سلوك الفرد والجماعة

1.3. تأثير الزوايا على سلوك الجماعة

لقد بينت مصادرنا العلاقة الروحية إلى درجة التقديس التي كانت تربط بين المرباط وتأثيره في محيطه القريب منه، أي بالأحرى العلاقة بين الولي الصالح والمجموعات السكانية التي تنتمي إلى الوحدة الترابية كالقبيلة مثلا الذي ينحدر منها أو ينتمي إليها أو المناطق البعيدة حيث تتجلى هذه العلاقة وبالدرجة الأساس من خلال المقدم الذي يسهر على نظافة وتسيير الزاوية.

فبعد وفاة الشيخ المرباط (الشيخ أو صاحب الزاوية) فإن مقدم تلك الزاوية يصبح حارسا على ضريح الولي الصالح بالتواتر أبا لابن، زيادة على هذا يتلقى الهدايا من الزوار وأحيانا أن مقدمو الزوايا قد لا ينتمون إلى عائلة المرباط الرمز فتصبح عائلة المقدم الأكثر تأثيرا من عائلة المرباط نفسه وهو الأمر الذي سمح للإدارة الاستعمارية الدخيلة الاستعانة بهم في تحقيق أهدافهم إما ك مترجمين أو كعمال⁽⁶⁾. ومن هنا يبدو لنا أن مقدمي الزوايا والذين لا ينتسبون إلى الشيخ عائليا أو عرقيا إما حادوا عن مبادئ وتعاليم الزاوية أو أن ارتباطهم العاطفي بالشيخ الولي والمؤسس جعل الكثير من الناس بما فيهم المريدين يرون فيه خليفة عليهم بحكم معاشرته لصاحب الزاوية المتوفى. فهي بذلك ثقة زائدة.

نبقى مع هذه التأثيرات ذات البعد الديني والروحي حيث ذكرت المصادر الأجنبية بأن بعض القبائل كانت تتعامل مع هؤلاء إلى درجة كبيرة من الولاء والطاعة والانصياع التي لا نظير لها، حيث تروي المصادر بأن إحدى قبائل أولاد سيدي الشيخ تردد دوما "الله يجعل ركوبك ساس، وركبتك تنباس، وذريتك تتعشى وذريتني تبقى بلاش"⁽⁷⁾. فهذا مثال واضح عن التبعية العمياء لهذه الفئة من المجتمع الذين يمثلون مدراء لهذه المؤسسات الدينية.

إلى جانب ذلك، كان خدام المرباط والزاوية والسكان المترددون مجبرين على زيارة ضريح الشيخ مرة واحدة في السنة وأن كل زائر من هؤلاء يترك حسب امكانياته المادية هدايا تعرف بالزيارة⁽⁸⁾ لم يقتصر هذا التأثير على سلوك الفرد في المحيط القريب من زاوية الشيخ فحسب وإنما كانت كل القبائل المجاورة تعترف بشخص المرباط ويقتصر كلامنا هنا على سبيل المثال لا الحصر على قبائل الشعابنة، سكان ورقلة، المخادمة، الأرباع، أولاد خليف، أولاد شعيب، جبل عمور، بني عامر، حميان، الجعافرة، وأولاد عياد⁽⁹⁾ إلى جانب ذلك، تروي ذات المصادر بأن شيخ الزاوية يمثل السلطان، والأمير، بل حتى الملك. ومن بين الزوايا الأكثر تأثيرا حسب وثائق الأرشيف الفرنسي نجد الزاوية الرحمانية، ففي منطقة بوسعادة كانت تضم 6210 من الإخوان و1079 مريد⁽¹⁰⁾ ولعل تأثيرها هذا مرتبط بالزعيم الروحي

للطريقة الصوفية فعلى سبيل المثال تذكر المصادر بأن الشيخ محمد بن بلقاسم زعيم زاوية الهامل هو الذي نقل زاوية أولاد جلال ضواحي بسكرة إلى مسقط رأسه بعد وفاة مؤسسها الشيخ المختار بن خليفة سنة 1863 وأن درجة التأثير هنا تكمن في المناطق التي أصبحت تابعة للزاوية والتي قدمت خدمة كبيرة لها اجتماعيا واقتصاديا بل حتى علميا، ومن مظاهر ما نذهب إليه هنا، هو عدد اللذين نالوا رتبة مقدم مع شيخ الهامل حيث يوضح ذلك الجدول الآتي:

المنطقة	عدد المقدمين	المنطقة	عدد المقدمين
بوسعادة	07	سيدي عيسى	02
أولاد جلال	02	برج بوعريش	03
المسيلة	07	سور الغزلان	02
ذراع الميزان	01	الجزائر	01
بوفاريك	01	الأربعاء	01
زمورة	01	تيارت	01
ثنية الأحد	03	قصر الشلالة	04
بوغار	07	آفلو	01
الأغواط	02	الجللفة	15

Archives Nationales d'Outre-mer (A.N.O.M), Bte n°2U/20, Aix-en –Provence, Marseille, France.

2.3. تأثير الزوايا على سلوك الفرد

كان للزوايا تأثير على سلوك الفرد في المجتمع الجزائري خاصة في المناطق الريفية كما أسلفنا لكن بدرجات متفاوتة بسبب اختلاف عوامل التأثير والتأثر، وهذا أمر طبيعي لا يقبل الجدل، لكن من غير الطبيعي أن المجتمع المسلم سواء بالأمس البعيد أو القريب أو اليوم يظل بعيدا عن تجليات هذه المؤسسات الدينية وتبعاتها على سلوك الفرد في جوانب عديدة ومختلفة، فنحن هنا لا نسرد المعلومات بقدر ما نقدم قراءة تاريخية نقدية عن ما كتب في شأن هذه التأثيرات التي تميز الفرد.

ولعل أكثر المظاهر التي تؤكد على تأثير الزوايا على سلوك الفرد في المجتمع الجزائري تخص النساء أكثر من الرجال، وتمس الجانب الصحي أيضا.

فمثلا في منطقة أم البواقي (Canrobert) تذكر المصادر بأنه وجد مزارين الأول بالموضع المسمى قصر صباحي، والثانية سيدي خليفة يقصدها أهالي المنطقة والمناطق المجاورة لإقامة الحفلات الشخصية أو العائلية للحصول على بركات الولي الصالح⁽¹¹⁾ وفي منطقة سدراته نستشف تأثيرها أيضا من خلال عدد الدواوير التي كانت تأتي إليها لإقامة الزردة العائلية طلبا لنزول الأمطار⁽¹²⁾. وظل

الزوايا في الجزائر وتأثيراتها من خلال الكتابات الاستعمارية خلال القرن 19

الاعتقاد سائدا بأن المزارات منطقة سوق أهراس مثل زاوية سيدي علي بن إبراهيم وسيدي بادر يأتي أهاليها للقسم في حال وجود المشاكل والخلافات العائلية وطلبا للغيث والاستطباب (13).

لم يقتصر الأمر على الشرق الجزائري إنما وجدت أيضا في بلاد القبائل الزوايا التي كان يأتيها السكان للحج في زمن الجفاف للدعاء ضد هذه الجائحة، وعلاج المرضى والدعاء للأهالي بالخير والسلام (14). وعلى ذكر المرضى يذكر بأن الشيخ سيدي علي طالب كان يملك قضييا خشبيا ولما يأتي الزوار للضريح والصلاة فيه يضربهم على ظهورهم للشفاء ويستعمل المريض أيضا حجارة من الضريح يبتلع فتاتها بعد طحنه (15).

تذكر المصادر أيضا، تأثر المرأة الجزائرية بظاهرة زيارة أضرحة الأولياء والصالحين من حين لآخر فعلى سبيل المثال لا الحصر، تتردد النسوة بشكل كبير على ضريح سيدي أحمد الكبير كل يوم جمعة فيذكر بأن عددهن كان يقدر بالآلاف خاصة في يوم الجمعة الثانية بعد نهاية شهر رمضان الكريم حيث كانت الجمعة الأولى مخصصة للرجال دون النساء (16). ويذهب البعض إلى أن الطلاس التي كانت تستعملها تزيد من حدة تأثيرها على المجتمع (17).

وعلى ذكر تأثير الزوايا على سلوك الفرد في المجتمع الجزائري، تذكر المصادر بأن في اليوم الثاني من العيد يظهر نشاط غير عادي للسكان، فمثلا على الطريق الرابط بين تلمسان وضريح سيدي بومدين يذهب الرجال والنساء والأطفال إلى هناك ببذلات مزركشة وطرابيش جديدة لزيارة الموتى حيث يغلب على تلك النسوة الحايك الأبيض، وبالقرب من منبع ونزعوة تجد باعة الحلويات التقليدية والمشروبات (18) كانت هذه أجواء العيد في إقليم تلمسان.

4. تأثيراتها الاقتصادية

بما أن الزاوية تمثل الحجر الأساس في العلاقات الأسرية والقبلية ودورها المتعدد للحفاظ على تماسكها، يذكر بأنه كان للزوايا أيضا تأثيرات اقتصادية من خلال:

1.4. أهمية الوقف بالنسبة للزوايا

أشارت المصادر الأجنبية إلى مدى استفادة شيوخ الزوايا من عقارات على اختلافها تعد نفعا ودعما لضمان سيرورة الزوايا مثل ما ذهب إليه الونشريسي حيث يذكر بأن بعض الأثرياء في بلاد المغرب كانوا يحبسون الزوايا على فقراء الوقف كما كانوا يحبسون عليها أيضا أوقافا من عقارات وبساتين للإنفاق على تلك الزوايا (19) فكانت الأراضي الزراعية تحرث وتزرع وتحصد ثمارها التي تعود عليها بالنفع ويضاف إليها العقارات الأخرى كالمحلات التجارية التي يعود ريعها إلى المرابط والزواوية الذي وضع لها الاستعمار حدا

بمعاقبتها، فعلى سبيل المثال لم تكن الأوقاف والحبوس محصورة في منطقة واحدة وإنما وجدت هنا وهناك مما يفسر درجة التأثير والتأثر التي كانت تحضي به، ولعل الجدول الآتي يوضح حقيقة ذلك كمثال على ما نذهب إليه (20).

طبيعة الحبوس	مكان تواجدها	قيمتها المقدرة
منازل وسكنات وبساتين	بالقرب من الهامل	50.000 فرنك
منازل	بوسعادة	5000 فرنك
نخيل وحدائق	واحة توقرت بوادي ريغ وبسكرة	65.000 فرنك
بساتين وحقول	الجلفة	500 فرنك
بساتين وأراضي	الشلالة	400 فرنك

أما خارج هذه الأوقاف والحبوس تشير المصادر بأن لالة زينب ابنة شيخ زاوية الهامل كانت تملك 150 من الجمال والإبل، و35 من الثيران، 5700 رأس من الأغنام، 600 رأس من الماعز، 10 أحصنة، 08 من الحمير و18 جحشا (21).

فمن خلال الجدول يتضح لنا تنوع الحبوس والأوقاف التي كانت تزود الزوايا بما تحتاج من مال وزرع خدمة للزوايا وعمالها والقائمون عليها وتشمل كما أسلفنا المنازل والبساتين وقطع الأراضي وما تحويه من غلال زراعية على اختلافها.

2.4. المصادر المالية للزوايا

تتحصل الزوايا على المال بوسائل معلنة وغير معلنة، تقليدية ومتجددة كالأوقاف مثلا كما أسلفنا ثم الزيارات ونعني بذلك ما يأتي به الزائر من عطية أو صدقة أو هبة فكل من جاء للتبرك أو السؤال والدعاء من شيخ الزاوية يأتي معه بمبلغ من المال يقدم عينا من ملابس ومأكولات وذبائح وغيرها أو نقدا تقدر بالدورو. فقبيلة أولاد سيدي الشيخ مثلا لم يكن لديهم سوى 20 حصانا فأمروا أكبر وأشد وأقوى قبيلة عندهم ألا وهي قبيلة حميان بـ 1000 رأس بين حصان وفرس فلبوا الدعوة مخافة الله حسب ما يذهب إليه. دوما (22).

إلى جانب رؤوس الأغنام والتمور القمح والفواكه الزبدة والشموع والألبسة الصوفية وجمال ودرهم (23) حدث أن الشيوخ أنفسهم كانوا يحصلون الزيارات لما ينفع البلاد والعباد إذ يذكر أن شيخ زاوية تماسين يقضي فصل الصيف بعين البيضاء لمدة 03 أو 04 أشهر يغتتم فيها الفرصة لجمع الصدقات من مريديه في المنطقة (24) ويرى آخرون بأنه بسبب طابعها المقدس فالناس لا يبخلون بما يقدمونه من مختلف المواد

الزوايا في الجزائر وتأثيراتها من خلال الكتابات الاستعمارية خلال القرن 19

كالزيت مثلاً والعسل وأنواع الفواكه والدجاج ورؤوس الأغنام مما يسمح لها بتوفير الطعام للمتريدين على الزاوية من جهة وإعالة طلبتها المقيمين فيها .

بالإضافة إلى ذلك، ولنقل صورة التكافل الاجتماعي، تذكر ذات المصادر بأنه لا يمكن لفقر أن يموت بسبب الجوع في بلاد القبائل فإذا رغب في البقاء بقريته فهو حر فالجيران يفتحون له أبواب بساتينهم ليقتات منها، وهنا طرح الكاتب سؤاله متعجباً من هذا السلوك الخيري الذي يمتد إلى بطون التاريخ إليك نصه: " أليس من العجب أن شعب نعتبره متوحشاً ومتعصباً للبربرية يمارس العمل الخيري أفضل من الشعوب والأمم الأكثر تحضراً؟" (25). حسب الدراسة التي أجراها السيد ديبون (M.M Duppont) و (Coppolani) فإن العائدات السنوية للزوايا خلال سنة 1895 قدرت بـ 7.500.000 فرنك موزعة كما يلي:

- المبيعات الناتجة عن الأوقاف 3.000.000 فرنك.

- حقوق..متنوعة...1.500.000 فرنك.

- قيمة الزيارات والهدايا والأعطيات 3.000.000 فرنك (26).

في وقت كانت فيه الضرائب المفروضة على المجتمع أو ما يعرف بالضرائب العربية قد قدرت بنحو 16.187.092 فرنك فالمتأمل لهذه المعطيات الإحصائية يكشف أن الحاصل السنوي لعائدات الزوايا من المواد العينية والنقدية يمثل تقريباً 50% من حجم الضرائب المفروضة على المجتمع الجزائري أو ما يسمى بالضرائب العربية.

إلى جانب ذلك لم تخف مصادرنا المخاوف التي خيمت على الحكومة الفرنسية آنذاك والتي ذكرت بأن حجم الاقتطاعات التي فرضت على الزوايا والطرق الصوفية والمرسلة إلى الخارج كانت للدعوة ضد المسيحية الاستعمارية (27).

لا يمكن تجاوز نقطة جوهرية في هذا المقام، وهي أن بعض الكتابات الاستعمارية رأت بأن الزاوية كانت تمارس سلطتها على الكثير من المناطق التي كانت تعطي الإشارة لانطلاق موسم الحصاد أو موسم الحرث فعند اقتراب هذه المواعيد فإن الأهلي المسلم لا يتجرأ أن يسبق المرباط في الأعمال الخاصة بهاتان العمليتان (الحرث والحصاد) لأن ذلك يعتبر نذير شؤم على القبيلة بكاملها.

لتلبية متطلبات الزاوية من مختلف الزروع التي تحتاجها لكل الأوقات اعتمدت على المخازن والمطامير لحفظ الحبوب التي تسمح بتقديم البذور للفلاحين وفيها تلقى الأعمال الخيرية للمسلمين ولغير المسلمين، فكان المريدون يمارسون الأعمال الشاقة في أراضي الأسياد ولعل أبرز مظهر من مظاهر التأثير

الاقتصادي التي نضيفها هنا هو أن توسع نفوذ وتأثير الزوايا كان له الأثر الإيجابي والأثر الطيب على اقتصادياتها بحيث أن المناطق التي تأثرت بخط سير هذه

الزوايا والتي تتمثل في تعاليمها ومنظومتها الدينية والتعليمية تصبح تابعة لها عاطفيا لترتبط بها اقتصاديا ومنه تزداد الثروات والمقدرات الاقتصادية لهذه الزوايا وموارد جديدة كالوحدات، ومصادر المياه، والحدائق والبساتين (28) مثال على ذلك أولاد سيدي الشيخ الذين تبعم مرابطي عين ماضي والتيجانية (29).

ولتوضيح هذه الفكرة، نقل للقارئ ما جاء في المصادر الرسمية الاستعمارية. تشير مصادرنا الأرشيفية إلى موارد زاوية الهامل والمقدرة بالفرنكات على النحو التالي:

- رؤوس الأغنام: 5000 فرنك/ سنويا.

- منتوجات زراعية: 12000 فرنك/ سنويا.

- منتوجات البساتين: 16000 فرنك/ سنويا.

- هبات وزيارات: 3500/ سنويا (30).

فكانت تلك المداخل تمثل 36500.00 فرنك في السنة وهو المبلغ الذي يمكنها من تلبية متطلبات الزاوية واحتياجاتها في التأطير البشري والحاجات الضرورية واللازمة لإدارتها، وإلى جانب مختلف الزروع والمواشي، كانت الأوقاف سبيلا آخر تتزود به هذه المؤسسات الدينية والتلقينية كما أسلفنا من قبل.

5. تأثيراتها السياسية والعسكرية

بينت بعض المصادر الأجنبية مخاطر الزوايا في الجزائر من خلال تسرب أفكارها من المشرق العربي ومن الصحراء الإفريقية الكبرى والتي كانت البيئة الخصبة لضمان نشاطها فاتخذت من الدعاية وسيلة لها حيث أعطت المصادر المعتمدة الحركة المهدية في السودان مثالا احتذت به بعض الزوايا والطرق الصوفية التي تغلغت من بحيرة التشاد ومملكة البورنو والسنغال الغربي نحو منطقة الهقار والطوارق، وتذكر ذات المصادر بأن ثورة أولاد سيدي الشيخ بالجنوب الوهراني دبرها أحد رسل الطريقة السنوسية (31).

لم تخف ذات المصادر دور الزوايا في الجهاد وتصفية الاستعمار، فلا تختلف عما جاء في كتابات المدرسة التاريخية الوطنية حيث يذكر بأن معظم الثورات التي عاشتها البلاد خلال القرن التاسع عشر قادتها الزوايا حيث يذكر بأن حوالي 300 انتفاضة قامت في الفترة ما بين (1832-1912) كما ذكر بأنها هي التي تعطي إشارة قيام الثورات (32).

الزوايا في الجزائر وتأثيراتها من خلال الكتابات الاستعمارية خلال القرن 19

إننا لا نكر هذا لأن تاريخ المقاومات الشعبية ضد الاستعمار الفرنسي يكشف بأن وراء كل منها زعيم روحي وزعيم عسكري.

نبقى دائما مع التأثيرات السياسية والعسكرية للزوايا، فيرى هانوتو (Hannoteau) بأنها ثورة واسعة خاصة بالطقوسيين المسلمين وطوفان. جاهز للانفجار فحسبه فإن المجتمع الجزائري المسلم هو بين أيدي الطرق الدينية التي تعد وسيلة للسيطرة أكثر منها خطورة إذ أنها تعمل في السر وفي الظل (33).

ويشاطره في الرأي كاريت (Carette) الذي يقول في هذا الصدد: "أنها الحركة الإسلامية الجديدة عبر إفريقيا الغربية التي كان لها تأثير قوي على هاته المنطقة، فإنها هي التي كرست القبيلة العربية في القارة الإفريقية عن طريق المجموعات السكانية، إنها تزحف ببطء لكنها لن تعود إلى الورا، ...، فإنه من السهل إتباع تطورات هذا الفيضان الذي يقلب كل شيء، ويلتهم كل شيء، ويخرب كل شيء، فإنها ليست أسماء لقياد وزعماء ظهوروا على مسرح الأحداث بل هي أسماء قبائل برمتها، إنها لا تستولي على المدن لإخضاعها لكن لنهبها وتحطيمها، فإنها معتادة على نظام الحرث والسير فإنها تخرب في طريقها كل ما يعيق تقدم سير المواشي والسكة بما في ذلك الأشجار والجدران" (34). ويذكر ذات المصدر وبإسهاب المدن الرومانية التي زارها في إطار جولاته العلمية مثل مدينة تيمقاد وتيبازة وغيرهما ويذكر بأنها غدت نتاج بربرية وغطرسة المجتمع الإسلامي (35).

ولعل ما يبين درجة تأثير الزوايا على الجانب السياسي والعسكري - من خلال الكتابات الاستعمارية طبعا - نجد ما فكرت فيه السلطات الاستعمارية بل ما أقرته من نصوص قانونية مضيقة على نشاط الزوايا في الجزائر، والتي تدخل في إطار محاربتها لهذه المؤسسات الدينية.

ناقشت الصحافة الكولونيالية هي الأخرى دور ونشاط الزوايا فجاء في إحداها ما يلي: "لا يوجد أي قانون ولا مرسوم ولا قرار يحدد الوضعية القانونية لهذه المؤسسات التي تضم في الجزائر مئات الآلاف من الأهالي" (36) فانتقد موراند (Morand) أستاذ القانون الإسلامي وعميد كلية الجزائر الذي درس الزوايا من الناحية التاريخية وتأثيراتها على سكان شمال إفريقيا واستنتج مواطنه السيد دوتي (Dotté) والفيلسوف أوغستين برنارد (Augustin Bernard) بأنه تأثير حقيقي يستوجب إخضاعه لرقابة فعلية (37). ففتح ذلك مجالا لمراقبة الإدارة الاستعمارية ومعرفة مخاطرها وتبعات استمرار نشاطها فراحت تراقب الإخوان من الشمال إلى ربوع الصحراء وسخرت لذلك ضباط المصالح المخبرانية أو شؤون الأهالي والمتصرفين الإداري (38).

من بين الإجراءات التي باشرت بها السلطات الاستعمارية أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، أنها وضعت نصوصا منظمة تقيد بها نشاط الزوايا من بينها مرسوم 25 أبريل 1896 الصادر عن الحاكم العام لرؤساء الدوائر هذا نصه:

- عن فتح الزوايا: "إنني أتحتفظ عن منح أو رفض رخص لفتح الزوايا والتي طالب بها الأهالي، فينبغي أن ترسل هاته الطلبات من طرفكم أنتم مع كل المعلومات الضرورية عن الشخص الراغب في ذلك".

- عن إغلاقها: إن محافظ الشرطة ملزم بتقديم كل المعلومات الضرورية وغير منقوصة وتقرير مفصل يحمل أسباب الغلق والظروف المحيطة بذلك مع قرار الغلق.

وفي مرسوم 24 نوفمبر 1903 صدر أمر بمنع الخرجات لجمع الزيارات والصدقات (39).

ومنه نستنتج أن الكتابات الاستعمارية اتهمت الزوايا والطرق الصوفية بعدم تكييفها مع المستجدات التي تظل بعيدة عن التقدم الحضاري الذي تشهده الدول الغربية وفي مقدمتها فرنسا الاستعمارية، وتوجد هنا إشارة إلى تأثير الزوايا في عدد مريديها الذي تعدى الأصابع لتتصاع إليها قبائل برمتها والتي لم تعد تخص شخصا بل هو إحياء إلى التكافل الاجتماعي الذي فرضه الدين الإسلامي.

6. دورها العلمي

كانت الزاوية مدرسة للتعليم الديني وكل ما يحيط بالأمور الشرعية ومواد أخرى كانت تدرسها لمختلف شرائح المجتمع وهي: القراءة والكتابة، حفظ القرآن، النحو، التصوف، الفتاوى، الحديث، تفسير القرآن، الجبر والهندسة، علم الفلك، وعلم العروض. فكان البعض من الناس يرسلون من مناطق بعيدة جدا لطلب العلم فكل طفل يدخل للزاوية بغرض طلب العلم يدفع ما مقداره 06 دورو أو 30 فرنك وهي تكاليف الغذاء واللباس والإيواء أما الأغنياء يضيفون على هذه التكاليف المفروضة هدايا تكون أحيانا نفيسة.

وعندما يمكث الأطفال في الزاوية لمدة 05 أو 06 سنوات يصبحون هؤلاء قادرون على الكتابة والقراءة وحفظ القرآن عن ظهر قلب ومقابل ذلك يتحصلون على رتبة طالب مما يسمح لهم عند عودتهم إلى أهاليهم وقبائلهم بالتدريس كما يؤهلهم أيضا بفتح المدارس القرآنية.

لم يستثن الجانب التعليمي عن تأثيرات الزوايا، وذلك من خلال الكتابات الاستعمارية بل ذكرت المصادر بأن البعض من الزوايا يأتي إليها التلاميذ والمريدين من مختلف مناطق البلاد بما في ذلك الوافدين من المغرب ومن مصر فالعلماء يدفعون عند التحاقهم بالزاوية 08 فرنكات وهي تكاليف فترة إقامتهم بها يحفظون خلالها القرآن والحديث، العلوم الشرعية، الجبر والهندسة، وعلم الفلك وأخيرا النحو

الزوايا في الجزائر وتأثيراتها من خلال الكتابات الاستعمارية خلال القرن 19

والصرف (40). وتذكر مصادر أخرى بأن الأجانب يدفعون مقدار 04 بوجو (1 بوجو يساوي 01 فرنك و75 سم) في الزاوية.

7. تأثيرها على الجانب الاجتماعي

تشير المصادر إلى تأثير الزاوية في بعث روح التعاون والتكافل الاجتماعي فأى كان مسافرا، غنيا كان أو فقيرا، حسن الهندام أو قبيح المنظر يقصد باب الزاوية يستقبل ويمكث فيها مدة ثلاثة أيام، وأن مقيمي الزاوية لن يتناولوا طعامهم حتى يأكل زوارها بمن كان معهم من بني البشر والحيوانات التي تلقى هي الأخرى الاهتمام من طرف القائمين على الزاوية حيث تخصص لها الإسطبلات للاستراحة والأكل (41).

إلى جانب ذلك، ولنقل صورة التكافل الاجتماعي، تذكر ذات المصادر بأن لا يمكن لفقير أن يموت بسبب الجوع في بلاد القبائل فإذا رغب في البقاء بقريته فهو حر فالحيران يفتحون له أبواب بساتينهم ليقتات منها، وهنا طرح الكاتب سؤاله متعجبا من هذا السلوك الخيري الذي يمتد إلى بطون التاريخ إليك نصه: "أليس من العجب أن شعب نعتبره متوحشا ومتعصبا للبربرية يمارس العمل الخيري أفضل من الشعوب والأمم الأكثر تحضرا؟" (42).

كانت الخصومات والشجارات بين الأفراد والجماعات أيضا تحل في الزاوية، ففي حال الشجار بين الأفراد أو القبائل يؤتى إليها بغرض القسم فالحكم الذي يصدره المرابط لا جدال فيه فهو بمثابة قاضي الزاوية والقبيلة معا (43) وأحيانا يضطر المرابط إلى التهديد باستعمال العنف اللفظي والدعوة بالسوء ضد من يعارضه في المسائل التي يفصل فيها والأحكام التي ينطق بها أو كل من يستهزئ بحكمه فيدعو لهم باللعنة على حد تعبير مصادرها إليكم مقتطف منها: "الله يلعنكم ويجعل خيلكم وإبلكم ونساؤكم عاقرا" ليأتي بعد هذه اللهجة المشينة جميع الحضور ويقبلون يديه (44).

8. خاتمة:

من خلال المصادر التي سبق وأن اطلعنا عليها والتي تطرقت إلى الزوايا وتأثيراتها في مجالات متعددة توصلنا إلى ما يلي:

كتابات هؤلاء لم تكن اعتباطية ولا عشوائية بقدر ما جاءت هادفة في فترة كان فيها الاستعمار الفرنسي يعمل على إذابة المجتمع الجزائري في المجتمع الفرنسي بمختلف أطيافه لا سيما من خلال محاولات إحداث تزواج حضاري بين الطرفين وترسيخ السيطرة لتمكين هؤلاء أنفسهم ليصبحون أوصياء على المجتمع.

جاءت الكتابات الاستعمارية متزامنة مع المشروعات التي وضعتها الجمهورية الفرنسية الثالثة التي برز فيها المشروع الاقتصادي الرأسمالي الكولونيالي الذي رأى بأنه لا مناص إلا بتقوية المنظومة المالية في الجزائر المستعمرة من خلال مداخيل الزوايا التي كانت تمثل تقريبا نصف القيمة الإجمالية للضرائب المفروضة على المسلمين الجزائريين من زيارات وهبات وأعطيات بما في ذلك المصادر العينية. ساهم في هذه الكتابات الضباط العسكريون والموظفون الإداريون الذين كانوا عوناً وسندا للإدارة الاستعمارية.

كانت كتاباتهم مكملية لمشاريع ومحاولات التمسّيح والتبشير من خلال المصطلحات التي استعملتها والتي من خلالها وضحت أسباب تخلف المجتمع الجزائري في تلك الفترة العنصرية من تاريخ الجزائر أو بالأحرى كانت تروج لفكرة تمسك الجزائريين بالعادات والتقاليد حيث نقلت أكثر من مشهد عن العادات والتقاليد والطقوس الممارسة التي حيرت هؤلاء.

استعملت الكتابات الاستعمارية أحيانا العبارات المشينة والمصطلحات العنصرية التي تمجد فيها سخاء الكنيسة على حساب العادات والتقاليد التي وصفوها بالرجعية والتي تخص المجتمعات الإسلامية عامة والجزائر خاصة.

الهوامش:

- (1) صلاح مؤيد العقبي، الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر، تاريخها ونشاطها، دار الوراق، بيروت، 2000، ص301.
- (2) محمد باي بالعالم، أهداف نشأة الزوايا بالجزائر، الملتقى الأول للزوايا بأردار المنعقد أيام 01 و 02 و 03 ماي 2000، ص1.
- (3) وهي بمثابة تكتة تحمي الثغور الإسلامية من أي خطر أجنبي.
- (4) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1998، ص42.
- (5) صلاح مؤيد العقبي، المرجع السابق، ص300.
- (6) أبو عبد الله غلام الله، دور الزوايا إبان المقاومة والثورة التحريرية، الملتقى الوطني الأول المنعقد يومي 25 و 26 ماي 2005، جامعة السانبا، وهران، منشورات وزارة المجاهدين، الجزائر، 2007.
- (7) Edmond DOUTTE, *Notes sur l'Islam maghrebin*, les marabouts, librairie Ernest LEROUX, Paris, 1900, p23.
- (8) Louis de BEAUDICOUR, *Les indigenes de l'Algérie*, Charles DOUNIOL libraire, Paris, 1852, p319.
- (9) Ibid, p320.
- (10) Louis de BEAUDICOUR, Op.Cit, p.321.
- (11) Archives Nationales d'Outre-mer (A.N.O.M), Aix-en-Provence, Boite n° 2U20.
- (12) A. COUR, « *Recherches sur l'état des confréries religieuses musulmanes dans le cercle de Oum-El-Bouaghi, Ain-Beida, Sedrata, Saint- Arthur, Tebessa, Meskiana, Khenchla* » in *Revue Africaine* , 62 ieme année, ancienne maison Bastide Jourdan, Alger, 1921,p91.
- (13) A. COUR, Op.Cit, p97.
- (14) Ibid, p110.
- (15) Louis de Beaudicour, Op.Cit, p24.
- (16) Ibid , p 24.

الزوايا في الجزائر وتأثيراتها من خلال الكتابات الاستعمارية خلال القرن 19

- (17) Arthur De CLAPAREDE, **En Algérie**, Librairie Fischbacher, Paris, 1896, p.128
- (18) Ernest LAYER, **Confreries religieuses musulmanes et marabouts, leurs états et leurs influences en Algérie**, imprimerie Gagnard ROUEN, 1916, p.23
- (19) Edmond DOUTTE, Les Aissaouas a Tlemcen, imprimerie Martin freres , Paris, 1900, p6.
- (20) كمال السيد أبو مصطفى، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الاسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار العربي للنشر، مركز اسكندرية للكتاب، 1996.
- (21) Archives Nationales d'Outre-mer, Boite n°2 U20.
- (22) Archives Nationales d'Outre-mer, Boite n°2 U20.
- (23) Le général DAUMAS, **Mœurs et coutumes de l'Algérie, Tell, Kabylie, Sahara**, librairie Hachette, Paris, 1853, p323.
- (24) Ernest LAYER, Op.Cit, p92.
- (25) Louis de BEAUDICOUR, Op.Cit, p26.
- (26) Ibid, p.25
- (27) Ibid , p.34
- (28) Pierre de BUIRE, **La derniere insurrection en Algérie**, Charles DOUNIOL Libraire éditeur, Paris, 1864, p8.
- (29) Ibid, p.8
- (30) Archives Nationales d'Outre-mer, Boite n°2 U20.
- (31) Napoléon NEY, **Un danger europeen, les sociétés secretes musulmanes**, Georges Carre libraire éditeur, Paris, 1890, p165.
- (32) L'Abbé Edmond LAMBERT, **A travers l'Algérie, histoire, mœurs et légendes des arabes**, René Halton libraire éditeur, Paris, 1884, p46.
- (33) Journal « **L'impartial** », n° 509, dimanche 10 Juin 1900.
- (34) Ernest LAYER, Op. Cit, p37.
- (35) Ibid, p38.
- (36) Napoléon REY, Op.Cit, p165.
- (37) Ibid, P191.
- (38) Ibid, p33.
- (39) A. G, “ **Les confreries religieuses**” in Le petit bulletin, Dimanche 13 Octobre 1933.
- (40) Napoléon NEY, Op. Cit, p27.
- (41) Ibid, p.26.
- (42) Napoléon NEY, Op.Cit, p26.
- (43) Louis De BEAUDICOUR, Op.Cit, p.25.
- (44) Ibid, p32.